شرح الأربعين النووية

الحديث التاسع والعشرون

أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُنِي الجَنَّةَ

اللقاء الثاني والثلاثون

الحديث التاسع والعشرون:

عَن مُعَاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلتُ يَا رَسُولَ الله أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعدني من النار قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيْمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيْرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيْمُ الصَّلاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ. ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيْئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ثُمَّ تَلا: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ) حَتَّى بَلَغَ: (يَعْمَلُونَ) [السجدة:16-17] ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ وَذِروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ ثُمَّ قَالَ: أَلا أُخبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ. وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَو قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ترجمة الراوي:

مُعَاذ بن جَبَلٍ رضي الله عنه معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي المدني البدري، أبو عبد الرحمن، أسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة، شهد العَقَبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله -ﷺ-.

بالرغم من حداثة سنّ معاذ بن جبل -رضي الله عنه- إلّا أنّه احتلّ مكانةً رفيعةً عند رسول الله -ﷺ-، وكان معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أحد الأربعة الذين أوصى النبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- بأخذ القرآن عنهم؛ لعلمه بأحكام القرآن وتلاوته وتوجيهاته، قال-ﷺ-: "خُذوا القرآنَ من أربعةٍ: من عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، فبدَأ به، وسالمٍ مولَى أبي حُذَيفَةَ، ومُعاذِ بنِ جبلٍ، وأُبَيِّ بنِ

كعبٍ"،[صحيح بخاري] وكان من ذلك أن ابتعثه رسول الله -ﷺ-إلى اليمن ليعلّم أهلها القرآن والإيمان بعد أن طلب أهل اليمن مَن يفقّههم في الدّين وأحكامه، وقد كرّم رسول الله -ﷺ- معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أكثر من مرّة؛ منها: أنّه قال فيه: (نِعم الرَّجُلُ مُعاذُ بنُ جَبلٍ)[صحيح ابن حبان]، وقال أيضاً: (وأعلَمُهم بالحلالِ والحرامِ مُعاذُ بنُ جَبلٍ)[صحيح ابن حبان] وكما ظهر حبّ رسول الله -ﷺ- جليّاً لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- وهو يوجّهه ويعلّمه شيئاً من الأدعية ليكرّرها فأمسك بيده وبدأ بتوجيهه فقال له: (يا معاذُ واللهِ إنّي لأُحِبُّك، فقال معاذ: بأبي أنتَ وأُمّي واللهِ إنّي لأُحِبُّك، فقال: يا معاذُ أوصيك ألّا تدَعَنَّ في دبُرِ كلِّ صلاةٍ أنْ تقولَ: اللَّهمَّ أعِنّي على ذِكرِك وشُكرِك وحُسنِ عبادتِك)[صحيح ابن حبان]

ورد في سيرة معاذ بن جبل -رضي الله عنه- مواقف تدلّ على حُسن أخلاقه ورفيع صفاته، منها:

- زُهد معاذ: أعطى عمر بن الخطّاب يوماً غلاماً له صرّةً فيها أربعمئة دينار، فدفعها إليه وقال له أوصلها إلى معاذ بن جبل، وقل له أنّ يقضي بهذا المال حاجته، ثمّ انظر ماذا يفعل فيها، فدفع الغلام لمعاذ -رضي الله عنه- المال، فبدأ معاذ من فوره بتوزيع المال على المساكين من جيرانه، وامرأته قائمة تنظر إليه، فقالت له ونحن والله مساكين فأبق لنا شيئاً، فلم يُبق معه إلّا ديناران دفعهما إليها، فعاد الغلام فأخبر عمر بما رأى، فسُرّ عمر من ذلك.
- ورع معاذ: كان لمعاذ -رضي الله عنه- زوجتين، فإذا كان يوم إحداهما لم يشرب كأس ماء عند الأخرى بُغيةَ أن يعدل بينهما، وقد توفيت زوجتيه الاثنتين في الطاعون فأقرع بينهما أيّهما يدفن أوّلاً وذلك من تحرّيه للحلال وورعه عن الحرام.
- عبادة معاذ بن جبل: كان معاذ -رضي الله عنه- إذا قام الليل قال: (اللهمّ طلبي للجنّة بطيء، وهربي من النّار ضعيف، اللهمّ اجعل لي عندك هدى تردّه إلي يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد).

بعثه النبي -ﷺ- بعد غزوة تبوك قاضيًا ومرشدًا لأهل اليمن، فبقي في اليمن إلى أن توفي النبي -ﷺ-، وولي أبو بكر، فعاد إلى المدينة، ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزوة الشام، ولما أصيب أبو عبيدة - في طاعون عمواس - استخلف معاذًا، وأقره عمر، لكنّه لم تدم إمارته للجند طويلاً حتى أُصيب بالطاعون فمات، وكان من أحسن الناس وجهًا، ومن أسمحهم كفًّا، له مائة وسبعة وخمسون حديثًا، توفي عقيمًا بناحية الأردن، ودفن بالقصر المعيني بالغور سنة ثماني عشرة، بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وثلاثين سنة، وفي رواية أخرى ثمانية وثلاثين.

منزلة الحديث:

هذا الحديث أصل عظيم متين، وقاعدة من قواعد الدين[الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

وقد تضمن الأعمال الصالحة التي تدخل الجنة وتبعد عن النار، وهذا أمر عظيم جدًّا؛ لأنه من أجل دخول الجنة والنجاة من النار أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب[الوافي].

شرح الحديث:

((أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعدني من النارَ))؛ أي: أرشدني إلى عمل شامل جامع لأعمال القلب واللسان والجوارح، بحيث لو تمسكت به وسرت عليه يكون سببًا في دخولي الجنة وبُعدي عن النار.

إنها القضية التي لا بد أن تشغل بال كل مسلم في كل وقت وفي كل الأيام المتبقية من عمره، إنها القضية التي شغلت قلوب الصالحين، وأسهرت لياليهم، واستنفذت أموالهم وأوقاتهم، إنها القضية التي جعلتهم يسارعون إلى الخيرات، ويتنافسون في أبواب الطاعات، وجعلتهم يتسابقون مع الزمن لكسب أسباب النجاة، إنها قضية واحدة، إنها قضية مغفرة الذنوب ودخول الجنة والنجاة من النار.

حَدِيْثٌ عَظِيْمٌ ذُكِرَتْ فِيْهِ الأَعْمَالُ التِيْ تُقَرِّبُ إِلَى الجَنَّةِ وَتُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، وَذُكِرَ فِيهِ أَبْوَابُ الخَيْرِ، وَرَأْسُ الأَمْرِ وَعَمُودُهُ وَسَنَامُهُ، ثُمَّ ذُكِرَ أَمْرٌ يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ أَلَا وَهُوَ اللِّسَانُ.....

"أَخبِرنِي بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ وَيُبَاعدني مِنِ النار"

فائدة:

لو قال قائل: إن النبي -ﷺ- قال: ((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ)) [صحيح البخاري].

فالجواب: قال ابن رجب رحمه الله: فالمراد – والله أعلم – أن العمل نفسه لا يستحق به أحدٌ الجنة، لولا أن الله عز وجل جعله بفضله ورحمته سببًا لذلك، والعمل نفسه من فضل الله ورحمته على عبده، فالجنة وأسبابها كل من فضل الله ورحمته؛ [جامع العلوم والحكم].

فالأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]؛ فالباء هنا سببية؛ أي بسبب أعمالكم رحمة من الله وفضلًا، وليست الجنة مقابل أعمالهم؛ كما في الحديث: ((لن يدخل الجنةَ أحدٌ منكم بعمله))، فالباء هنا باء العوض، وليست الجنة عوضًا عن الأعمال، بل ليست الأعمال عوضًا عن نعم الله في الدنيا؛ كما قال تعالى:﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]؛ اهـ..

((لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ)) اللام واقعة في جواب قسم محذوف، والتقدير: والله لقد سألت عن عظيم، وفي رواية: لقد سألتني، ((عظيمٍ))؛ لأن عظم الشيء بعظم الأسباب، والنجاة من النار أمر عظيم، فكيف مع دخول الجنة؟!

إننا نحتاج إلى عمل لا إلى كثرة كلام، إننا نحتاج إلى عمل صالح ونافع لا إلى كثرة كلام فارغ لا يسمن ولا يغني من جوع.

إننا قد آمنا بأن الدنيا قنطرة إلى الآخرة، وأنها دار زائلة وأن الآخرة هي الدار الباقية إما جنة لا ينقطع نعيمها، وإما نار يدوم سعيرها، إننا قد سمعنا قول النبي-ﷺ-: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" فلم لا نطيع أمره ونحن قد صدقناه في خبره، لم تتعدد قضايانا في هذه الدنيا، ونغفل عن قضيتنا الأساسية وهي قضية النجاة من النار ودخول الجنة؟

إن أصحاب النبي -ﷺ- الذين عاينوا الجاهلية والإسلام قد أدركوا عظم نعمة الإسلام، وأنها نعمة أنقذتهم من النار بعد أن كانوا على شفا حفرة منها، ولذلك كانوا حريصين على معرفة الطريق المنجي والأعمال الموجبة لرحمة الله، وكانت فعلا قضيتهم قضية الجنة والنار، لقد كان أحدهم إذا أسلم أدرك خطورة الأمر، فكانت كثير من أسئلتهم للنبي -ﷺ- تصب في هذا المعنى: ما هي أسباب المغفرة؟ وما الأعمال الموجبة لدخول الجنة؟

((وَإِنَّهُ))؛ أي: العمل الذي يدخل الجنة ويباعد عن النار ((لَيَسِيْرٌ))؛ أي: هين ((عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ))؛ أي: سَهْل على مَن سَهَّله الله عليه بتوفيقه وتهيئة أسبابه له، وشرح صدره إليه، وإعانته عليه.

((تَعْبُدُ اللهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

❁الوصية الأولى: "تعبد الله ولا تشرك به شيئًا"، ابتدأ النبي -ﷺ- بالأهم وهو تحقيقُ العبودية لله، وتعلُّقُ القلب بالله وحده، وتخليصُه من جميع ما يشوبه، وهو أصل دعوة الرسل -عليهم السلام- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)[الأنبيَاء: 25]، فيوحد المسلم ربه في جميع شؤونه، ويخلص عبادته لله وحده فلا شريك معه، ولا ند، كما قال -سبحانه-: (أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)[الزُّمَر: 3]، وقد أمر الله نبيه محمدًا -ﷺ- أن يقول للمشركين: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ)[الأنعَام: 162-163].

ولعظم من حققها قال أبو ذر -رضي الله عنه-، قال النبي -ﷺ-: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة"، قلت: وإن زنى وإن سرق؟! قال: "وإن زنى وإن سرق"، قالها ثلاثًا، ثم قال في الرابعة: "على رغم أنف أبي ذر"، فخرج أبو ذر، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر"(متفق عليه).

وقيل لوهب بن منبه: "أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك"(رواه البخاري).

وأسنانُ مفتاح الجنة فعلُ ما أمر الله –تعالى– به، وترك ما نهى الله عنه، فمن حقق عبوديته لله فهو السعيد في الدارين، ويرجى له دخول الجنة، قال النبي –ﷺ–: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة"(رواه أبو داود).

وعبادة الله سبحانه وتعالى هي القيام بطاعته؛ امتثالًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، مخلصًا له.

((وَتُقِيْمُ الصَّلاة))

الوصية الثانية: "وتقيم الصلاة المكتوبة" إقامتها تكون بتحقيق شروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وقد أمر الله بالمحافظة عليها بقوله: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ) [البَقَرَة: 238]، وقال النبي –ﷺ–: " العَهْدُ الَّذي بينَنا وبينَهُمُ الصَّلاةُ، فمَن تركَها فقد كفرَ "(رواه ابن ماجه).

أَمْرُ الصَّلَاة عَجِيب؛ فَفِي حِينِ أَنَّ جَمِيعَ العِبَادَاتِ فُرِضَتْ فِي الأَرْضِ؛ فَإِنَّهَا فُرِضَتْ فِي السَّمَاءِ، وَفِي حِيْنِ أَنَّ كُلَّ العِبَادَاتِ نَزَلَتْ عَلَى النَبِيِّ –ﷺ– بِوَاسِطَةِ أَمِيْنِ الوَحْيِ جِبْرِيلَ؛ فَإِنَّ الصَّلَاة فَرَضَهَا اللهُ عَلَى النَبِيِّ –ﷺ– مُبَاشَرَةً مِنْ غِيْرِ وَاسِطَةٍ.

وقال النبي –ﷺ– في فضل أدائها: " خَمسُ صَلَواتٍ كَتَبهنَّ اللهُ على العبادِ، فمن جاء بهنَّ لم يُضَيِّعْ منهنَّ شَيئًا استِخفافًا بحَقِّهِنَّ، كان له عند الله عَهدٌ أن يُدخِلَه الجنَّةَ، ومن لم يأتِ بهنَّ فليس له عند اللهِ عَهدٌ؛ إن شاء عَذَّبه، وإن شاء أدخَلَه الجنَّةَ "(رواه أبو داود).

وفي الحديث القدسي: "وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه"(رواه البخاري)،

فالصلوات المفروضة محببة إلى الله أكثر من النوافل، وكذا صيام رمضان على صيام الاثنين والخميس، والزكاة على الصدقة، وحج الفريضة على التطوع.

وهكذا كان النبي –ﷺ–: "إذا حزبه أمرٌ صلَّى" (رواه أبو داود)، وفي حال الرخاء قال: " وجُعِلَ قرةُ عيني في الصلاةِ "(رواه النسائي).

ولما دخل المِسور بنُ مخرمةَ على عمرَ بنِ الخطاب في الليلة التي طعن فيها، أيقظ عمرَ لصلاة الصبح، فقال عمر: "نعم، ولا حَظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وجُرحُه يثعب دمًا"(رواه البيهقي).

وقال-ﷺ-: "أولُ ما يحاسبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصَّلاةُ، فإنْ صَلَحَتْ، صَلَحَ سائِرُ عَمَلِه، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سائِرُ عَمَلِه" صحيح الترغيب، والصلاة تزكي النفوس، وتسمو بالأخلاق، قال -سبحانه-: (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) [العَنكبوت: 45].

((وَتُؤتِي الزَّكَاة))؛

❁الوصية الثالثة: "وتؤدي الزكاة المفروضة"؛ الزكاة هي: اسم لإخراج شيء مخصوص، من مال مخصوص، على أوصاف مخصوصة، تدفعها لمستحقيها، وفعل الزكاة من صفات عباده المؤمنين، قال -تعالى-: (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) [المؤمنون: 4].

وزكاة المال تطهره من الحرام، وهي سبب لزيادته وبركتِه وكثرةِ نفعه، وعونٌ على استعماله في الطاعات، قال -سبحانه-: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التّوبَة: 103]، وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان زاكيًا يستحق في الدنيا الأوصافَ المحمودة، وفي الآخرة الأجرَ والمثوبة، وأداؤها سبب لدخول الجنة.

قال رسول الله -ﷺ- في حجة الوداع: "اتَّقوا اللَّهَ ربَّكم وصلُّوا خمسَكم وصوموا شَهرَكم وأدُّوا زَكاةَ أموالِكم وأطيعوا ذا أمرِكم تدخلوا جنَّةَ ربِّكُم"(صحيح الترمذي).

وفي الزكاة تكاتف وترابط، وعطف ورحمة بين الغني والفقير، ولذا في وصية النبي-ﷺ- لمعاذ بن جبل -رضي الله عنه- " فأعْلِمْهُمْ أنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عليهم صَدَقَةً في أمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِن أغْنِيَائِهِمْ وتُرَدُّ علَى فُقَرَائِهِمْ "(رواه مسلم).

وعبَّر عن الزكاة بالأداء لا بالإقامة كما في الصلاة، لأنها لا تحتاج إلى خشوع وخضوع القلب، وإنما تحتاج إلى بذل مالٍ مع الإخلاص، والمفروضة هي المقدرة من الأموال والثمار والمواشي، وذِكْر "المفروضة" احترازٌ من صدقة التطوع.

((وَتَصُومُ رَمَضَانَ))؛

والوصية الرابعة: "صوم رمضان": والصوم هو التعبد لله تعالى، بالإمساك عن المفطرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فما الصيامُ إلا دأْبُ الصالحين، وشِعارُ المتقين، ودِثارُ الصالحين، يجازي اللهُ أهلَهُ جزاءً بغيرِ حساب؛ ففي الصحيحَين عن أبي هريرة -رضي اللهُ عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ". وفي روايةٍ لمسلم: "كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يضاعَف، الحسنةُ بعشرِ أمثالِها إلى سبعمِائةِ ضعف، قال الله عز وجلّ: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ شهوتَهُ وطعامَه من أجلي".

ولذا كانَ الجزاءُ من جِنسِ العمل؛ فمَن قام بهذه الفريضةِ وأداها كما أمر الله -سبحانه- كان من المدعُوّين إلى الجنةِ من بابِ الرّيّان يومَ الدين، قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ

لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ" (متَّفقٌ عليه).

قال ابن القيم –رحمه الله–: في الصيام: "إنه لجام المتقين، وجُنَّةُ المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين".

((وَتَحُجُّ البَيْتَ))؛ أي: تقصد البيت الحرام، وهو الكعبة، لأداء المناسك.

((أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟))؛ أي: الطرق الموصلة إليه.

((الصَّوْمُ جُنَّةٌ)) المراد بالصوم هنا غير رمضان؛ لأنه قد تقدم، ومراده الإكثار من الصوم، والجُنة المِجَن؛ أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات، الصوم سترة لنا ووقاية من النار.

المسلمُ يتَّخِذُ هذا الصومَ جُنةً من نزغاتِ الشيطانِ الرجيم، ودعواتِ النفسِ الأمارةِ بالسوء، وانتصارًا على الهوى الصادِّ عن الحقّ، ولا يكونُ يومُ صومهِ ويومُ فطرِهِ سواءً؛ بل هو في حذرٍ أن يُنتقَصَ صومُه، لا يجهلُ ولا يصخب، بل يبادرُ بالإحسانِ طلبًا لعظيمِ الرُّتَب، فإنْ بادره ذو لغوٍ بسبٍّ أو قتالٍ بادر بالإعلان: إني صائم.. إني صائم.

كذلكم فليكنِ الصيام، جُنَّةً عن الآثام، وترفُّعًا عن قبيحِ الفِعالِ وسيِّء الكلام؛ لأن الصيام مدرسةٌ تربّي الروح، وتقوّي الإرادة، ولن يكون الصيامُ كذلكم حتى يخشعَ القلبُ لخالقِه، وتستكينَ الجوارحُ لربّها، ومن كان كذلك كان حقيقًا بالمغفرةِ الموعودة على لسانِ الصادقِ المصدوقِ قال –ﷺ–: "من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدمَ من ذنبه" (متفَقٌ عليه).

ولن ينالَ اللهَ –تعالى– نفعٌ بإمساكِ عباده عن الطعامِ والشراب، وليس للهِ حاجةٌ في إعناتِ عبادِه، وهو القائل –سبحانه– في آيات الصيام: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: 185]، ولكن ينالُه التقوى منهم.

أمّا من اتخذوا الصيامَ عادةً اعتادوها، لا يفهمون منه إلا جوعًا مقعِدًا عن العمل، وعطَشًا مُنهِكًا للجسد؛ فهؤلاءِ همُ المهازيلُ، تَجِدونَهم حال صيامِهم أتعسَ الناسِ نُفُوسًا، وأقربَهُمْ عُدْوانًا، لم يستحضروا في عبادتهم حقًّا نارًا ولا جنَّة، ولم يكنِ الصيامُ لهم وِقايةً ولا جُنَّة، فربما صاموا عن الحلالِ في أصلِه، ووقعُوا في الحرامِ فعلِه وقولِه، وهؤلاءِ وأمثالُهم من عناهم رسولُ الله –ﷺ– بقوله: "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" (أخرجه البخاريُّ في صحيحِه).

ليسَ للهِ حاجةٌ فيمن أصبح صائمًا عن الطعامِ والشرابِ وهو يكنِزُ في صدره السخائم، ويحمِلُ في قلبِهِ الأضْغَان، وليس لله حاجةٌ فيمن أمسى مسارعًا إلى سوءِ الظنّ، وقولِ الزور، وشهادةِ الزور، والجهلِ واللغو، وأكل الحرام، أو أطلَقَ سمعَهُ وبَصَرَهُ في منبِتاتِ النفاق، وداعياتِ الفحشاءِ والمنكر؛ ليس لله حاجة في جميعِ أولئك أن يَدَعُوا الطعامَ والشراب.

والمقصود من الصيام حبس النفس عن ملذاتها وتركها لشهواتها، وابتعادها عن مألوفاتها، قربةً ومحبةً لمرضات ربها، لتستعد لطلب سعادتها في دنياها وأُخراها.

((وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيْئَةَ)) المراد غير الزكاة؛ أي: تمحوها وتذهب أثرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، وقول النبي -ﷺ-: ((وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها)) صحيح الترمذي

والصدقة تمحو أثر الخطيئة إن كانت من الصغائر بحق الله عز وجل، أما الكبيرة فلا يمحوها إلا التوبة، وأما حق الآدمي فلا يمحوه إلا رضا صاحبه.

((كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ)) كما أن إطفاء الماء للنار لا يبقي من النار شيئًا، كذلك الصدقة لا تبقي من الذنوب شيئًا.

فالمعنى: (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ) أي سخطه على من عصاه، وإعراضه عنه ومعاقبته له ، وليست الصدقة قاصرة على نوع معين من أعمال البر، بل إن القاعدة العامة تقول : إن كل معروف صدقة ،(وَتَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ) أيضاً بأن يموت مصرًّا على ذنب ،أو قانطاً من رحمة الله ،أو مختوماً له بسيء عمل، فميتة السوء نوع من عقوبة الله وغضبه، فالمرء قد يستحق بالذنوب قضاء من العقوبة، فإن هو تصدق دفع عن نفسه ما استحق من ذلك، فإذا زال ذلك الغضب بالصدقة زال العقاب، وكذلك الدعاء يرتفع إلى الله تعالى فيوافق البلاء نازلا من السماء فيزيله ويصرفه، فللصدقة تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجر ،أو من ظالم ، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء.

والصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه.

ولهذا قال النبي -ﷺ- في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار.

وفي الصحيحين: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- :«مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وفي الصحيحين : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ "ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدِيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا ، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تَغْشَى أَنَامِلَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ، وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ بِمَكَانِهَا"، فلما كان البخيل محبوساً عن الإحسان ممنوعاً عن البر والخير وكان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح، والمتصدق كلما

تصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح وقوي فرحه وعظم سروره.

والصدقة ظلنا من اللهب يوم القيامة، ففي مسند أحمد: (عن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ».

قَالَ يَزِيدُ وَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لاَ يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلاَّ تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعْكَةً أَوْ بَصَلَةً أَوْ كَذَا.

((وَصَلاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ))؛ أي: وسطه أو آخره؛ إذ في الحديث: ((أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر)) ، والمعنى: أن صلاة الرجل في الليل من أبواب البر، وأنها تطفئ الخطيئة أيضًا كالصدقة، وإنما خص الرَّجل بالذِّكر؛ لأن السائل ذَكَر، وإلا فمِثلُه المرأةُ.

((ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: 16])) شاهد لما قال، من أن الصلاة من جوف الليل من أبواب الخير؛ لأنه رتب عليها ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، ولأن صلاة الليل هي دأب الصالحين من قبلنا، وشعارهم.

قال -ﷺ-: "أفضلُ الصلاة بعد الفريضة: صلاةُ الليل". رواه مسلم.

والله يُحبُّها، قال -ﷺ-: "أحبُّ الصلاةِ إلى الله: صلاةُ الليل". متفق عليه.

وأداؤُها بإخلاصٍ من علامة التقوى، قال -سبحانه-: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) [الذاريات: 15-17].

وهي سببُ رحمة الله للعبدِ، قال -ﷺ-: "رحِمَ الله رجلاً قامَ من الليل فصلَّى". رواه أبو داود.

وهي من العبادات التي تُؤدَّى لشُكر نِعَم الله الوافِرة، كان -ﷺ- يقومُ من الليل حتى تتفطَّرَ قدَماه، ويقول: "أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شَكورًا؟!". رواه البخاري.

وأقربُ ما يكونُ الربُّ من العبدِ في جوفِ الليل، قال -ﷺ-: "فإن استطعتَ أن تكون ممن يذكُرُ اللهَ في تلك الساعة فكُن". رواه الترمذي.

وصلاةُ الليل عاصِمةٌ -بإذن الله- من الفِتَن، قالت أمُّ سلمة -رضي الله عنها-: استيقظَ رسولُ الله -ﷺ- ليلةً فزِعًا يقول: "سُبحان الله! ماذا أنزلَ الله من الخزائِن؟! وماذا أُنزِلَ من الفتن؟! من يُوقِظُ صواحِبَ الحُجُرات؟!". يُريدُ أزواجَه لكي يُصلِّين، "رُبَّ كاسِيةٍ في الدُّنيا عارِيَةٍ في الآخرة". رواه البخاري.

فيها انشراحُ الصدر، وراحةُ البال، وسُرور القلبِ، قال ابن حجرٍ -رحمه الله-: "في صلاةِ الليل سرٌّ في طِيبِ النفس".

وهي من أسباب دخولِ الجنة، قال -سبحانه-: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة: 16، 17].

قال عبدُ بن سلامٍ –رضي الله عنه–: أولُ شيءٍ سمِعتُ النبي –ﷺ– تكلَّم به حين قدِمَ المدينة: "يا أيها الناس: أفشُوا السلام، وأطعِموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناسُ نِيام؛ تدخُلوا الجنةَ بسلامٍ". رواه الترمذي.

بل من أدَّاها كان في أعلَى منازِلِ الجنة، قال –ﷺ–: "إن في الجنةِ غُرفًا تُرَى ظهورُها من بُطونِها، وبُطونُها من ظهورِها". فقامَ أعرابيٌّ فقال: لمن هي يا رسول الله؟! قال: "لمن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصلَّى بالليل والناسُ نِيام". رواه أحمد.

واللهُ أمرَ رسولَه –ﷺ– أن يتعبَّدَه بتلك الصلاةِ ليَنالَ أعلى المقامات، قال –عز وجل–: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]، فكان –عليه الصلاة والسلام– لا يترُكها لا سفرًا ولا حضرًا.

وقرأَ ابنُ عمر –رضي الله عنهما–: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]، قال: "ذاك عُثمانُ بن عفَّان".

قال ابن كثيرٍ –رحمه الله–: "وذلك لكثرة صلاةِ أميرِ المُؤمنين عُثمان بالليل وقراءتِه، حتى إنه رُبَّما قرأَ القُرآنَ في ركعةٍ".

مما يجلِبُ الرِّزقَ: قيامُ الليل، وكثرةُ الاستِغفار بالأسحار، وتعاهُد الصدقة، والذكرُ أول النهار وآخره.

وشرفُ المُؤمنِ قيامُه بالليل، قال سعيدُ بن المُسيَّب –رحمه الله–: "إن الرجلَ ليَقومُ الليلَ فيجعلُ الله في وجهِه نورًا يُحبُّه كلُّ مسلم".

فالدُّنيا زمنُها قصير، والمُكثُ فيها يسير، والليلُ بما فيه من صلاةٍ وتلاوةٍ ودُعاءٍ وتسبيحٍ واستِغفارٍ من خيرِ ما يعمُرُ به المُسلمُ آخرتَه، ومن أعظمِ ما يدَّخِرُه من الأعمالِ الصالحةِ للِقاءِ ربِّه، واللَّبيبُ من يغتنِمُ آخرَ الليلِ لإصلاحِ دينِه ودُنياه.

((ثُمَّ قَالَ))؛ أي: النبي –ﷺ–: ((أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ،))؛ أي: دلني وأخبرني.

((قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ))، وقد ورد تفسير هذا في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد، عن النبي –ﷺ– قال: ((إن رأس هذا الأمر أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله))؛ أي: إن رأس الدين الذي بعث به –ﷺ– هو الإسلام بأركانه الخمسة جميعًا.

((وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ))؛ أي: المفروضة، وعمود الشيء هو الذي يقيمه، ولا ثباتَ له في العادة بغيره، ولأن الصلاة عماد الدين وقوامه الذي يقوم به، وكما أن العمود يرفع البيت ويهيئه للانتفاع، فكذلك الصلاة ترفع الدِّين وتظهره.

الصَّلاَةُ عِمَادُ الإِسْلاَمِ وَعَمُودُهُ؛ الفُرْقَانِ بَيْنَ الإِسْلاَمِ وَالكُفْرِ، لَا إِسْلاَمَ بِلَا صَلاَةٍ، فَمُسْلِمٌ لَا يُصَلِّي لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، وَلَوِ ادَّعِى ذَلِكَ، وَلَو نَطَقَ الشَّهَادَةَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَلَو صَامَ وَتَصَدَّقَ، قَالَ –ﷺ–:

"بَيْنَ الرَجُلِ وبيْنَ الشِرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاة" رَوَى مُسْلِمٌ ، وقَالَ -ﷺ-: "العَهْدُ الذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاة، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ" وَرَوَى التِرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُ ؛ فَقَدْ كَفَر، شَاءَ أَمْ أَبَى؛ -عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى-.

كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابُ -رَضِي اللهُ عَنْهُ- يومًا إِلَى عَامِلِهِ: "إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاة، مَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ".

وقَالَ -ﷺ-: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ: صَلَاتُهُ؛ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ" رَوَى التِرمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُ.

صلة بين العبد وربه، لذة ومناجاة تتقاصر دونها جميع الملذات، نور في الوجه والقلب، صلاح للبدن والروح، يطهر القلوب، تكفر السيئات، تنهى عن الفحشاء والمنكر: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [البقرة: 153].

((وَذروَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ))؛ أي: أعلى ما في الإسلام وأرفعه الجهاد؛ لأن به إعلاء كلمة الله، فيظهر الإسلام ويعلو على سائر الأديان، وليس ذلك لغيره من العبادات، فهو أعلاها بهذا الاعتبار.

وقيل: لا شيء من معالم الإسلام أشهر ولا أظهر منه، فهو كذروة السنام التي لا شيء من البعير أعلى منه، وعليه يقع بصر الناظر من بُعد.

والجهاد أربع مراتب: أولها: جهاد النفس. ثانيها: جهاد الشيطان. وثالثها: جهاد الكفار. ورابعها: جهاد المنافقين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله:" (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ) فَيُؤْمَرُ بِجِهَادِهَا، كَمَا يُؤْمَرُ بِجِهَادِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعَاصِي وَيَدْعُو إلَيْهَا، وَهُوَ إلَى جِهَادِ نَفْسِهِ أَحْوَجُ؛ فَإِنَّ هَذَا فَرْضُ عَيْنٍ، وَذَاكَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، وَالصَّبْرُ فِي هَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْجِهَادَ: حَقِيقَةُ ذَلِكَ الْجِهَادِ؛ فَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ، صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ الْجِهَادِ. كَمَا قَالَ: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ).

وقال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (3/ 6):" كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ ، وَأَصْلًا لَهُ ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا ، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ ، وَيُحَارِبَهَا فِي اللَّهِ : لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ ، وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ : وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ ، لَمْ يُجَاهِدْهُ ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ ؛ بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إلَى عَدُوِّهِ ، حَتَّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ " انتهى .

وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو؟: " ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها ".

((ثم قال)) النبي -ﷺ- ((أَلا أُخبِرُكَ بِملاكِ ذَلِكَ)) الأمر ((كُلِّهِ؟ فقلت: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ)) أخبرني، ((فَأَخَذَ)) النبي-ﷺ-((بِلِسَانِهِ))، والمعنى أمسك لسان نفسه بيده، والحكمة في ذلك المبالغة في الزجر، ((وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا))؛ أي: لا تتكلم بما لا يعنيك، وكفُّ اللسان عن

المحارم سلامة، والسلامة في نظر العقلاء مقدمة على الغنيمة، وقد قال النبي -ﷺ-: ((مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أوْ لِيَصْمُتْ)).

((قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ))؛ أي: إنا معاقبون بكل ما نتكلم به ((فقال)) له النبي صلى الله عليه وسلم: ((ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ))؛ أي: فقَدَتْك، وهو دعاء عليه بالموت على ظاهره، وليس المراد الدعاء عليه بالموت، بل جريًا على عادة العرب في الخطاب؛ كـ: تربت يداك، ولا أم لك، ولا أبا لك، وأشباه ذلك.

((وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَو قَالَ: ((عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلسِنَتِهِمْ؟)) شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل، وهو من بلاغة النبوة، فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل أنواع الكلام حسنًا وقبيحًا، والمعنى لا يكُبُّ الناسَ في النار إلا حصائدُ ألسنتهم؛ من الكفر، والقذف، والشتم، والغِيبة، والنميمة، والبهتان، ونحوها، وهذا الحكم وارد على الأغلب؛ لأنك إذا نظرت لم تجد أحدًا حفظ لسانه عن السوء إلا نادرًا.

هَذَا العُضْوُ مِنْ جَسَدِ الإِنْسَانِ سَرِيْعُ الحَرَكَةِ، صَغِيْرُ الحَجْمِ، كَبِيْرُ الأَثَرِ، كَمْ تَفَرقَت بِسَبَبِهِ مِنْ صَدَاقَاتٍ!، وَكَمْ تَشَتَّتْ مِنْ بُيُوتٍ!، وَكَمْ دَخَلَ الحَبْسَ مِنْ أُنَاسٍ!، وَكَمْ أُزْهِقَتْ مِنْ أَنْفُسٍ!، وَكَمْ نَشَأَتْ مِنْ حُرُوبٍ!، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ اللِّسَانِ.

وَلِذَلِكَ عَظَّمَ اللهُ مِنْ شَأْنِ الكَلِمَاتِ، وَجَعَلَهَا مُحْصَاةً عَلَى بَنِي آدَمَ: (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق:18]، فَكُلُّ مَا خَرَجَ مِنْهُ يُكْتَبُ وَيُرْصَدُ، وَيُحْفَظُ وَيُجْمَعُ؛ لِيُنْشَرَ يَوْمَ الدِّينِ.

المُسْلِمُ الحَقُّ حَافِظٌ لِلِسَانِهِ حَقَّ الحِفْظِ، رَوَى البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِاللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ -رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ".

مَنْ آذَى النَّاسَ بِلِسَانِهِ؛ فَإِنَّ خَطَرَ لِسَانِهِ قَدْ يُلْقِي بِهِ فِي النَّارِ، رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ فُلَانَةَ تُكْثِرُ مِنْ صَلَاتِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصِيَامِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا. قَالَ: "هِيَ فِي النَّارِ"، قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ! فَإِنَّ فُلَانَةَ يَذْكُرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَلَاتِهَا وَأَنَّهَا تَتَصَدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا. قَالَ: "هِيَ فِي الجَنَّةِ".

يَا اللهُ! تَصُومُ وَتُصَلِّي وَتَتَصَدَّقُ لَكِنَّهَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟! عِيَاذًا بِاللهِ -تَعَالَى-.

نَعَمْ! لَقَدْ أَفْلَسَتْ مِنْ ثَوَابِ جَمِيْعِ الطَّاعَاتِ بِسَبَبِ اللِّسَانِ، رَوَى مُسْلِمٌ فِيْ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟"، قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتِي يَأْتِي يَومَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا

مِنْ حَسَناتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"، عِيَاذًا بِاللهِ -تَعَالَى-.

قَدْ يَسْتَهِيْنُ الإِنْسَانُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، لَكِنَّهَا تُهْلِكُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، رَوَى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: "إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ".

وَجُرْحُ السَّيْفِ تَأْسُوه فَيَبْرَأ *** وَجُرْحُ الدَّهْرِ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

جِرَاحَاتُ السِّنَانِ لَهَا الْتِئَامٌ *** وَلَا يَلْتَامُ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

مَنْ تَكَلَّمَ فِي النَّاسِ تَكَلَّمُوا بِهِ؛ فَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وَكَمَا تَدِيْنُ تُدَانُ، قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: "أَدْرَكْتُ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا لَيْسَ لَهُمْ عُيُوبٌ، فَعَابُوا النَّاسَ فَصَارَتْ لَهُم عُيُوبٌ، وَأَدْرَكْتُ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا كَانَتْ لَهُم عُيُوبٌ، فَسَكَتُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، فَنُسِيَتْ عُيُوبُهُم".

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُ -رَحِمَهُ اللهُ-: "إِنِّي لَأَرَى الشَّيءَ أَكْرَهُهُ؛ فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَتَكَلَّمَ فِيهِ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ أُبْتَلَى بِمِثْلِهِ".

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُل فَتُبْتَلَى *** إِنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بالمنْطِقِ

فمن ملك لسانه، فأشغله بما يقرب إلى الله؛ من قراءة وذكر، ودعاء، واستغفار، وحبسه عن الكلام المحرم؛ من غيبة، أو نميمة، أو كذب، وكل ما يسخط الجبار – فقد وفق للخير والثواب، وسَلِم من الشر والعقاب.

فانظروا ما أسهل هذه الشرائع وأيسرها، وما أعظم ثوابها وأجرها، وما أكملها، قال تعالى: (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً) [المزمل: 20].

لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه.

❶شرح حديث: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: عبد العال سعد الشليّه

❷شرح حديث "دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة": إسماعيل القاسم.

❸ فضائل قيام الليل: عبد المحسن بن محمد القاسم.

❹حصائد ألسنتهم: عبد الله اليابس.

❺الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.